قيمة الأدب والفن

إن الحديث عن قيمة الخطاب الأدبي والفني أصبح ضرورة لازمة بعد الجفوة والإهمال اللذين تعرضا لهما ولا يزالان عبر العقود الأخيرة من قبل العديد من الإسلاميين.

إنهم يعدون الأدب، والفن، أمراً ثانوياً، وعبثاً، وتضييعاً للوقت، بل إن بعضهم يمضي إلى ما هو أبعد من ذلك فيرى في الآداب والفنون بوابات للفساد ومزالق تقود إلى حافات المروق والضلال. وهم ينظرون بدهشة إلى كل أولئك الذين يبدون اهتماماً بالقصة والرواية والمسرح، والفنون السمعية والبصرية عموماً، ويحكمون عليهم بأنهم قد اختاروا الأدنى وفرطوا بأولويات التعامل المعرفي التي تحتم على المسلم ألاّ يقرأ أو يدرس إلا العلوم الشرعية التي تفقّهه في أمور دينه وتزيده قربا من الله سبحانه.. وهكذا يصير النشاط الأدبي والفني في نظرهم أحبولة يمدها الشيطان لإبعادهم عن هذه المطالب وإيقاعهم في شرك الغواية والضلال.

وزادهم اقتناعاً برؤيتهم هذه أنهم يجدون مساحات واسعة من الآداب والفنون يشغلها ويمتطيها محترفو الإفساد والتخريب الفكري والنفسي والخلقي في العصر الحديث، وأن معطياتها تعكس أقصى حالات التفكك والرذيلة والخراب.

د. عماد الدين خليل - العراق

هذا حق.. وحق أيضاً أن الأدب والفن في أساسهما تقنيتان حياديتان يمكن توظيفهما لخدمة هذا المذهب أو ذاك، وأن الخطاب الأدبي والفني يظل واحداً من أكثر الصيغ قدرة على الإثارة والإقناع والتأثير، وصوتاً يملك إمكانية اختراق سمع الإنسان المعاصر وعقله ووجدانه والوصول إلى عمقه الفكري والذوقي والروحي لتقديم قناعاته وتصوراته.

لقد أفاد " الآخر " من هذه الفرصة المقترحة ووظفها إلى الحد الأقصى من قدراتها المتاحة، ومارس بوساطتها دوراً مزدوجاً، فأكد بمعطياتها ذاته وموقفه وفلسفته وتصوراته ومنظوره للحياة والإنسان والعالم.. وهاجم في الوقت نفسه رؤى الآخرين وتصوراتهم وقناعاتهم فعرّضها لسلسلة متواصلة من الهزات والأعاصير، مستهدفاً تدمير ثقة الخصم بقيمه وخصوصيته ووضعه في منطقة الفراغ أو الانخفاض الجوي، وتجريده من سلاحه، وقطع جذوره بعقيدته وتراثه وتاريخه، وجعله في نهاية الأمر يتقبل كل ما تأتي به رياح التشريق والتغريب.

◁ الآيات الشيطانية:

إن الغرب اعتمد هذه الأداة في غزوه الفكري، وراح هذا الاعتماد يزداد اتساعاً في الكم والنوع، ويمثل بمرور الوقت ضغطاً متزايداً على عقل المسلم المعاصر ووجدانه وذوقه، بل على حريته واختياره.. إنهم يشدّدون حصارهم أكثر فأكثر، يعينهم على ذلك هذا التقدم الأسطوري في تقنيات الخطاب الأدبي والفني، وبخاصة السينما والمسرح والتلفزيون والكاسيت والفيديو والفضائيات والإنترنت، فضلاً عن التفنن في إخراج الكلمة المكتوبة والفكرة المصورة عبر الكتب والمجلات والدوريات في عالم متقارب يزداد التصاقاً يوماً بعد يوم، ويغدو قرية صغيرة لا يستطيع أحد أن يهرب من مرئياتها وخبراتها ومسموعاتها التي تطرق على رأس الإنسان المعاصر وسمعه وبصره صباح مساء.

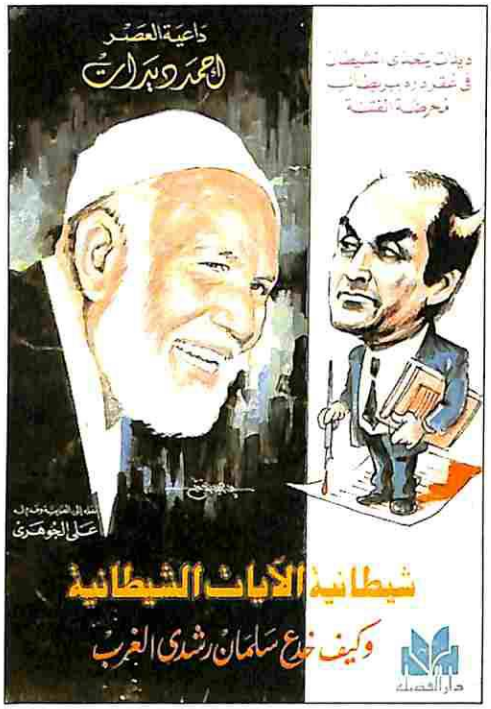

■ ليست رواية (الآيات الشيطانية) لسلمان رشدي، الأولى ولا الأخيرة في حلقات الهجوم المضاد على مواقعنا الدينية والحضارية.

إن رواية (الآيات الشيطانية) لسلمان رشدي، ليست الأولى ولا الأخيرة في حلقات الهجوم المضاد على مواقعنا الدينية والحضارية، ولقد أعطيت هذه الرواية . إذا جازت التسمية . حجماً أكبر من حجمها الحقيقي، فهي ليست بالرواية التي تمتلك مطالبها الفنية في سياق نوعها الأدبي، كما أن كاتبها أعطي حجماً أكبر من حجمه وهو لا يعدو أن يكون أداة للشتم واللعن.. فغدا بسبب الإثارات المتزايدة بطلاً. وضحية تلجأ القيادات الغربية إلى حمايته من المطاردة والإرهاب.

إنه وروايته أتفه من أن تثار حولها ضجة كهذه، وكان يتحتم قتله بالصمت.. ولكن، وعلى أية حال، فإن محاولته تجيء في سياق توظيف واسع النطاق للخطاب الأدبي ضد المسلم في العالم، وهي ليست المحاولة الوحيدة، كما أنها الحلقة الأضعف في سلسلة حلقات تبدأ منذ زمن بعيد وتمضي إلى أهدافها في تصعيد الحملة ضد الإسلام والمسلمين.

ولقد أتيح لي أن أشهد في لندن وحدها وبالإنكليزية فقط، في صيف عام ١٩٩٠ م ما يزيد على الثلاثين رواية كلها تنسج بالمغزل نفسه وتستهدف القضية ذاتها: الهجوم بقوة الكلمة وتقنياتها الجمالية على مواقع المسلمين كافة: رسالة وعقيدة وديناً وحضارة وقادة وعادات وأذواقاً وتقاليد.. مستخدمة كل صيغ التزوير والتحوير والتزييف من أجل تحقيق هدفها المزدوج: تدمير ثقة المسلم بنفسه وعقيدته وحضارته وقياداته من جهة، وتقديمه للآخر في صورة مشوّهة مهزوزة تمنح القناعة بضرورة استمرارية قيادة الرجل الأبيض للعالم، والتحكم بالمصير البشري !

لأضرب بعض الأمثلة على قدرة الخطاب الأدبي والفني على التأثير، والفاعلية الفكرية والوجدانية التي ينطويان عليها:

الكثير منا شاهد فيلمي (الرسالة) و (عمر المختار) اللذين أخرجهما مصطفى العقاد، ولمس التأثير الإيماني العميق للخطاب الفني عندما يمتلك تقنياته الجيدة ويتحقق بقدر كبير من قوة الأداء.. والفيلمان على ما فيهما من مآخذ ليس هذا مجال الحديث عنها، حققا ما لم تحققه مئات الخطب والمواعظ والدروس والمحاضرات.. إننا هنا قبالة اختزال من نوع فريد.. قبالة تكثيف في الجهد يمنحنا بساعتين أو ثلاث ما لا تمنحنا إياه عشرات الساعات ومئاتها في حلقات الخطاب الفكري أو الجدلي، وأن المرء يتساءل فيما إذا كان بالإمكان ممارسة توظيف أكثر فأكثر للخطاب الفني في مجابهة عوامل الغزو والتفكيك والإفساد.

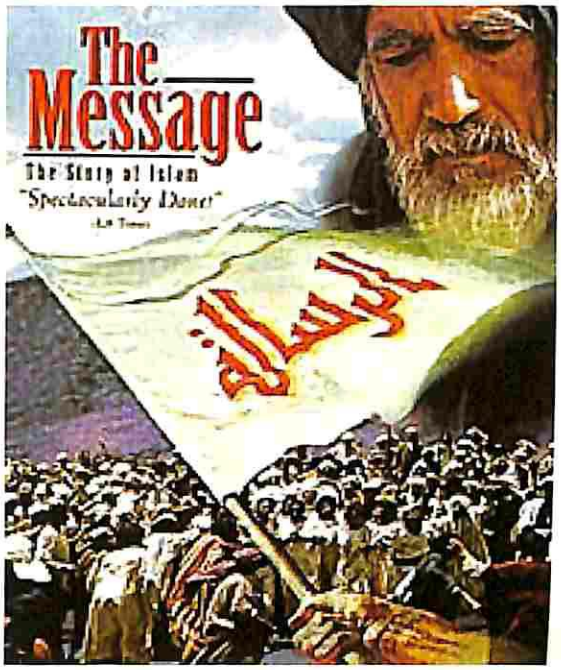

لقد مارسنا بهذين الفيلمين غزواً مضاداً إذا صح التعبير.. والذين عادوا من ديار الغرب حدثونا عن

التأثير البالغ الذي أحدثه فيلم الرسالة في عواصم أوربا وعن حشود الجماهير الأوربية التي راحت تتدفق على صالات العرض على مدى الأسابيع والشهور الطوال لمشاهدة فيلم يحدثهم بقوة الأداء الفني وجمالياته عن ظهور الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ورجالاته بنبرة صدق لم يألفوها وسط الدخان الذي شوّه كل ما يمس الإسلام في عقولهم ونفوسهم..

لقد كان التأثير كبيراً. ويتساءل الإنسان مرة أخرى ماذا لو واصلنا المحاولة بعشرات الأفلام، وأشرطة الفيديو، والعروض المسرحية، وغيرها من تقنيات الخطاب الفني لكي نكسر الحلقة المفرغة ونوصل صوتنا إليهم فنقطع الطريق، أو بعضه على الأقل، قبالة حشود من سماسرة التزوير والتزييف الذين عرفوا كيف يوظفون هذه الأداة لتعميق الجهل والكراهية والتعصب في نفس الإنسان الغربي تجاه كل ما يمت بصلة إلى الإسلام وعالمه وقيمه ومعتقداته؟

◁ فيلم عمر المختار

فيلم (عمر المختار) محاولة أخرى لا تقل تأثيراً.. إنها تتوجه بأدائها المؤثر بقوة الكلمة، وتقنيات الفن السينمائي، إلى الإنسان المعاصر لكي يتبين للناس من هو المعتدي ومن المعتدى عليه، ولكي تقول أيضاً: إن العدوان الغربي ما كان يتردد لحظة في استخدام أي أسلوب لتدمير مقاومة الخصم، خلقيا كان هذا الأسلوب أم غير خلقي، إنسانياً كان أم ضد الإنسان.. لكي تقول أيضاً: كيف أن المسلم، على قلة حيلته في موازين القوى، كان قديراً على الرد بقوة العقيدة، وأن هذه الطاقة الفاعلة صنعت الأعاجيب ومكنّت المسلم الذي يدافع عن أرضه وعرضه وعقيدته من مجابهة خصمه وإلحاق الهزائم به لولا أن هذا كان يبرر لنفسه في المآزق أي أسلوب لامتلاك زمام المبادرة وسحق الطرف الآخر.

لا زلت أذكر تلك اللقطة المؤثرة من الفيلم: عمر المختار (الذي يؤدي دوره الممثل العالمي المعروف أنتوني كوين) يجلس قبالة تلامذته الصبيان بلحيته البيضاء الوقور، يعلمهم القرآن.. كان يتلو عليهم ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ (الرحمن)..

ما يلبث أن يتقدم إليه رجل من أصحابه، يهمس في أذنه كلمات: هجوم مباغت شنته كتيبة إيطالية على إحدى قرى عمر المختار.. لم يكن في القرية مقاتل واحد.. كل من فيها كانوا من النساء والأطفال والعجزة والشيوخ.. أبيدوا بالضربة العمياء عن آخرهم.. تتغير ملامح عمر المختار، تنتابه الحيرة للحظات.. ولكنه ما يلبث أن ينهض قائماً وهو يتلو : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ (الرحمن)..يتحدث مع صاحبه ثم ما يلبث أن يغادر المكان لكي يقيم الوزن بالقسط ويعيد الميزان إلى وضعه العادل، فيشن حملة مباغتة على موقع عسكري للإيطاليين فيبيد أفراده ومعداته جميعاً.. والمشاهد لا يملك إلا أن يهتز انفعالاً للموقف المثير.. للبعد الإيماني والإنساني معاً الذي ينطوي عليه ويعبّر عنه..

◁ التوازن المطلوب في وسائلنا

إننا من أجل تحقيق التوازن، أو الاقتراب من حافاته على الأقل، لبأمسّ الحاجة إلى فيلم أكثر.. أو سهرة تلفازية أكثر.. أو مسرحية أو مسلسل أو نشيد أو رواية أكثر.. إننا بهذا سنغطي مساحة ما من زمن الخطاب الأدبي والفني، وسنطرد الأعمال الرديئة، ليس بمستواها الفني الصرف وإنما بمضامينها الهابطة، وبمرور الوقت سينحسر الأسود لكي يأخذ الأبيض مكانه فيضيّق الخناق عليه.. وسيجيء اليوم الذي يجد المسلم نفسه قديراً على تزجية الساعات الطوال قبالة أعمال أدبية وفنية ترضي ذوقه وأشواقه بصفته مسلما، وتلبي حاجاته الجمالية والوجدانية بصفته مؤمنا..

إنني لازلت أذكر ذلك الحوار المؤثّر الذي جرى بيني وبين أحد الدعاة في الدوحة في قطر في خريف عام ١٩٧٩م.. وهو رجل معمّم يدلف إلى السبعين من عمره.. حدثني :كيف أنه في الصيف الماضي كان يركب جملاً ويجتاز صحراء مصر الغربية لكي يلاحق الكاميرا، وهو

في الجبة والعمامة، من أجل إخراج فيلم تلفزيوني إسلامي يغطي جانباً من زمن التلفزيون البئيس، وقال: إن المهم أن نبدأ، والبقية تأتي.. وتوفي الرجل عليه رحمة الله، وجاءت البقية كما توقع وأمّل.. وانطلقت مجموعات من الأدباء والفنانين الإسلاميين لكي تحاصر الزمن السيئ، وتطرده بالأعمال التي تليق بالإنسان.. الأعمال التي تعيد للحياة البشرية طهرها وعذوبتها وبراءتها بعد إذ مضت بها فنون التعهير إلى المباغي والمواخير والحانات وبؤر الشذوذ والانحراف.

إن هناك تصوراً خاطئاً يبدو أننا أسهمنا جميعاً في تأكيده، وهو يمارس ولا ريب دوراً سلبياً في رفض اعتماد الخطاب الأدبي والفني في حياتنا الإسلامية.. إنه الاعتقاد بأن الأدب والفن الإسلاميين إنما هما أداء تقريري مباشر يدعو للتمسك بالأخلاق الحميدة والتشبث بقيم الإيمان، وإعلان الحرب ضد الكفر والمروق والتحلل غير الأخلاقي الذي يغزو المجتمعات كالسرطان.. وهو أداء لا يكلف نفسه تحسين أدواته بل لا يهمه أساساً أن يحسن هذه الأدوات، ومن ثم فإنه يعتمد على أبسط الطرق وأسهلها، وأكثرها مباشرة دونما أي قدر من الإبداع والإتقان أو الانزياح عن المعاني المباشرة، ولا أي قدر من الإفادة من قدرات اللغة المجازية أو تقنيات الفنون المتطورة.

إن الأدب الإسلامي، ينتظره الكثير في المستقبل القريب والبعيد، وإذا كان الإنسان في حاجة إلى هذا الأدب في كل زمن فإنه اليوم بحاجة أشد إلحاحاً بسبب ما يعانيه من مآزق وأزمات، وبسبب عجز الآداب والفنون الوضعية، على تقدّمها، في التقنيات والأشكال، عن أن تقدم مضامين وقيماً تليق بالإنسان وتلبّي أشواقه فيما وراء دائرة الغريزة والحس وصراخ البيولوجيا والضرورات.

إن أدباً كهذا سيكون ولا ريب رافداً من روافد المشروع الحضاري الإسلامي البديل الذي يتأكد أكثر فأكثر بعد سقوط الكثير من النظم والأفكار الوضعية، وعجز بعضها الآخر، أو وصوله إلى طريق مسدود.

وهو رافد لا يقل أهمية عن الروافد الأخرى التي تسهم في صياغة مفردات هذا المشروع ومنحه القناعات والضمانات الكافية للمرور عبر القرن الواحد والعشرين. ولسوف يكون الخطاب الأدبي والفني في هذا المشروع بمثابة المتنبئ والنذير.. ولسوف يحمل بقوة الكلمة والأداء الجميل: الوعد المرتجى للإنسان الضائع في الزمن القادم.

إن الأدب يفترق عن الفلسفة أو العمل الفكري أو الأكاديمي عموماً في كونه يخاطب كينونة الإنسان، بما أنه كائن فذ متفرد عقلاً وروحاً وجسداً وغرائز وأشواقاً ووجداناً.. والأدب بهذا المعنى يغدو فرصة طيبة لتقديم خبرات الإسلام ورؤاه ومواقفه وزرعها في أفئدة الناس وقلوبهم وعقولهم لكي ما تلبث أن تزهو بالعطاء.. إن الأديب هو الزارع المتمرس الذي يعرف كيف يشق الأرض لكي تستقبل الماء المنصب من السماء فتكون الخضرة الواعدة، ويكون النخل والرمان والزيتون.

إن وظيفة الأدب والفن في المفهوم الإسلامي وظيفة حيوية بالغة الخطورة فإذا ما تذكرنا كيف أن كتاب الله الخالد اعتمد جمالية الكلمة وتأثيرية المضمون لهزّ وجدان الناس وإيقاظ عقولهم، كان لنا أن نعرف كم هي خطيرة حاسمة مهمة الأدب في الحياة الإسلامية.

لن يتسع المجال للتحدث بالتفصيل عن وظيفة الأدب والفن بالضرورة. في الحياة الإسلامية ولذا جدني مضطراً لأن أمر بها مروراً سريعاً، ولأبدأ بالوظيفة العقدية..

◁ مؤثرات النقد الجمالي

إن معطيات هذا الدين يمكن أن تركب إلى الناس ألف مركب في كل مكان وزمان.. ولكن ليس كمركب الفن المؤثر الجميل من يقدر على فتح منافذ الوجدان البشري لكي تستقبل هبّة اليقين الذي جاء به الإسلام، هنالك حيث ينسجم الإنسان ويتوافق مع الموجودات على مدى الكون الفسيح..

إن الأديب أو الفنان وهو يمارس عملية تشكيل الكلمات وصياغتها وهندستها للتعبير عن هذا الجانب أو ذاك من الحياة الإسلامية، لتوصيل هذه الرؤية أو تلك من عقيدة الإسلام للآخرين، إنما يمارس وظيفة من أخطر وظائف الأدب والفن على الإطلاق.

كل الوظائف الأخرى يمكن أن تندرج تحت ظل هذه الوظيفة الكبرى ما دامت أنها روافد تتجمع وتتعاطف لكي تصب في نهاية المطاف في بحر العقيدة الواسع العميق. ولن يكون من المحتوم على الأديب أو الفنان المسلم أن يقصر همومه على عرض القيم والمواقف الإسلامية.. يكفي أن يهدم عقائد الوضّاعين ومذاهبهم وتصوّراتهم.. يكفي أن يكشف عما تتضمنه من كذب وزيف وخديعة.. يكفي أن يحكي عن مردودها على الإنسان ألماً وتعاسة ونكداً وشقاءً.. لكي ما يلبث أن يتضح للناس أن البديل الوحيد.. البديل الحق هو الإسلام وحده.

إن القصيدة أو القصة أو المقالة أو الرواية أو المسرحية أو المسلسل أو الفيلم أو النشيد.. إذا ما أتيح لها أن تمارس نقداً جمالياً مؤثّراً للمعطيات والمذاهب الوضعية التي تسعى لاستعباد الناس للآلهة والأرباب والوضّاعين من دون الله.. وإذا أتيح لهذه الأعمال أن تهدم. بعبارة أخرى. تلك المعطيات هدماً جمالياً مؤثّراً، فإنها ستكسب المعركة لصالح الإسلام، ولن تكون في نهاية الأمر سوى أعمال إسلامية يمكن توظيفها عقدياً جنباً إلى جنب مع تلك الأعمال التي تركزّ همها من أجل عرض بنائيّ. بالأسلوب الجميل نفسه. لهذا الجانب أو ذاك من عقيدة الإسلام المتفرّدة ورؤيته الفذة للكون والعالم والوجود.

■ يمكن أن يحقق الأدب والفن حدّاً أدنى من التوحّد الإسلامي في الإحساس والرؤية والتجربة.. في عالم يسوده التمزق والتباعد والقطيعة وسوء التفاهم..

هنالك الوظيفة السياسية إذا صح التعبير.. إن الأدب والفن ها هنا يمكن أن يحققا حدّاً أدنى من التوحّد الإسلامي في الإحساس والرؤية والتجربة.. في عالم يسوده التمزق والتباعد والقطيعة وسوء التفاهم والبغضاء.. إن الأديب الإسلامي يمكن أن يتجاوز ما يحدث فوق، فيما يسمى بالقمة.. إلى أمم الإسلام وشعوبه وجماهيره الواسعة، لكي يتحدث عنهم وإليهم، ولكي يجسّد أمام وعيهم الذي تضغط عليه أجهزة الإعلام صباح مساء، أهدافهم الضائعة، ومطالبهم الملحة، وآمالهم المرتجاة.. لكي يحكي عن الآلام التي تجمعهم والويلات التي تطحنهم، والمؤامرات الكبيرة التي تحاك ضدهم بليل أو نهار.. لكي يحضّهم على التحرك من أجل قطع أيدي الكبار الذين يحكمون الدول الغاشمة، والذين تمتد أيديهم صباح كل يوم لكي تولم عليهم.. على أرضهم وكرامتهم وشرفهم وأموالهم وبرهم وبحرهم، فتجعل منهم القصعة التي حذر منها الرسول المعلم ﷺ يوماً، ومن أن تتداعى عليها الأمم حيث المسلمون كثيرون.. كثيرون جداً، ولكنهم غثاء كغثاء السيل..

وثمة ما يرتبط بهذا إنها الوظيفة الاجتماعية.. إن الأدب والفن الإسلاميين مدعّوان لأن يبذلا قصاراهما لإغناء التجربة الاجتماعية الإسلامية وحمايتها وتحصينها ضد عوامل التفكك والتحلل والغربة والفناء.

إن ما تبقى لمجتمعاتنا الإسلامية عبر رحلة التاريخ الطويلة، بقايا مما أراده دين الله لهذه الأمة كي تتوحّد وتسعد، وكي تكون لها المكانة الوسط التي أرادها لها الإسلام.. لقد نقضت هذه المجتمعات مطالب عقيدتها والتزاماتها الاجتماعية عروة عروة.. تآمر عليها المتآمرون لتحقيق هذا الانسلاخ.. نعم.. ولكن تآمرها على نفسها بالجهل والإغراء، والضعف وعدم اتقاء الفتنة، كان أكبر بكثير.

وإذا كان (فانتيلا هوريّا) قد تحدث عن مجتمع مسيحي، و(جدعون) عن مجتمع يهودي، و(باسترناك) عن مجتمع ليبرالي، و(شولوخوف) عن مجتمع شيوعي، و(كامي) عن مجتمع وجودي، و(ميتشل) عن مجتمع رأسمالي، و(مورافيا) عن مجتمع منحلّ.. فإنه قد آن الأوان لكي يبرز أديب، بل أدباء إسلاميون، لكي

يتحدثوا لنا عن مجتمع إسلامي ويقّصوا على العالم شيئاً من أنبائه وملامحه التي لم يعرفها قط مجتمع من المجتمعات..

في مقابل الوظيفة الاجتماعية هنالك الوظيفة النفسية، إن المسلم المعاصر يعاني من تأزّم نفسي عميق لم يشهد له تاريخ الإسلام مثيلاً.. ما في هذا شك إذا أردنا أن نكون صريحين.. إنه فريسة ضغوط هائلة لا تطاق، تنصب عليه من كل مكان لكي تسحقه وتزيده تأزّماً.. ضغوط حضارة مادية مضادة تسعى لاقتلاعه من الجذور.. ضغوط هزائم عقدية وسياسية واجتماعية متلاحقة أخذت تتزايد مع الأيام.. ضغوط حملات إعلامية قاسية لا تدعه يرتاح ساعة من ليل أو نهار.. ضغوط فتن اجتماعية تسعى لأن تقذف إلى الشارع بكل ما تبقى من قيم والتزامات وقناعات.. إن الإنسان المسلم موضوع اليوم بين المطرقة والسندان فكيف لا يزداد معاناة وعذاباً؟

■ آن الأوان لكي يبرز أديب، بل أدباء إسلاميون، لكي يتحدثوا لنا عن مجتمع إسلامي ويقّصوا على العالم شيئاً من أنبائه وملامحه التي لم يعرفها قط مجتمع من المجتمعات..

◁ الوظيفة التربوية والوجدانية

إن (نمذجة) الأزمات التي يعانيها المسلم المعاصر. إذا صح التعبير. وتجسيدها بلغة الفن، سوف تجعل كل واحد من هؤلاء يدرك أنه ليس وحده في ميدان العذاب وأن كثيرين من إخوته يعانون مثل ما يعاني.. وسوف تمكنه. وهذا هو الأهم. من التغلب على متاعبه والانطلاق إلى أهدافه وهو أكثر قدرة على المقاومة والتحمّل.. متحرراً من كل إسقاط قد يعيق حركته ويشلّه عن مواصلة الطريق..

وهذا يقودنا إلى الوظيفة التربوية. الخلقية بدءا من تحقيق أكبر قدر ممكن من الانضباط الخلقي وانتهاءً بتنمية الحس الجمالي للإنسان المسلم..

إن سلّم القيم التربوية التي ينشدها العمل الفني الهادف سلّم واسع المدى كثير الدرجات، يمنح الأديب والفنان مقداراً واسعاً من الحرية في الاختيار دونما أي قدر من التوتّر والمباشرة.. ونستطيع بقراءة متأنّية لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبتتبع حركات الجماعات الإسلامية عبر تاريخها الطويل أن نتبيّن العديد من هذه القيم التي تصلح دونما تعّسف لأن تكون محاور لأعمال إبداعية تعتمد وقائع وأحداث تاريخنا المزدحم الكثيف.

هنالك السعي من أجل تحقيق النقاء الروحي وتأكيد التوازن الفعّال بين العقل والروح والجسد، بين العلم والإيمان..

وهنالك العمل من أجل تنمية قيم البطولة وتعميق مواقف الرفض، يقابلها العمل من أجل التحقّق بالصفاء والانسجام والإحساس الغامر بالتوافق مع سنن الكون والعالم ونواميسهما وموجوداتهما. وغير هذا وذاك الكثير من القيم التي يتحتم غرسها وتنميتها في كيان الفرد المسلم والجماعة المسلمة من أجل تعزيز شخصيتها وتأكيد ذاتها الحضارية وتمكينها من الوقوف على قدميها لمجابهة صراع العقائد والأفكار والدول والحضارات في عالم يضيع فيه من لا يملك شخصية ولا ذاتاً.

هنالك. أيضاً. ضرورات الالتزام الخلقي بمفهومه الواسع.. الاستعلاء على الدنس والإغراء.. تكوين النظرة الشمولية التي ترفض التجزئة والتقطيع.. التوحّد بين المعتقد والممارسة أو التصوّر والسلوك.. تنمية الحس الجمالي الخالي من الشوائب.. تغطية الفراغ الواسع الذي تمنحه الحضارة المعاصرة بترفيه منضبط.. تجاوز الذاتية المنغلقة من جهة ورفض الاندماج القطيعي من جهة أخرى.. إدانة الهروب والانزواء.. أو الذوبان والإطاعة العمياء..

هناك التنمية العاطفية والوجدانية وفق طرائق سليمة.. امتصاص وتصعيد الطاقة الجنسية المكبوتة.. حل وتفكيك الخوف والإحساس بالنقص وفقدان الثقة وسائر التأزّمات التي تجنح بالشخصية عن الحد الأدنى من السوية المطلوبة.. مجابهة القلق البشري المدمّر ومنح اليقين.. مجابهة الإحساس العبثي الغاشم وتقديم البديل الإيماني في الغائية والجدوى..

وهناك . فوق هذا وذاك . تحقيق الاقتران الشرطي السليم بين الفن والقيم وتقديم بدائل إسلامية مقنعة لمعطيات الفنون الوضعية في ميدان القيم التربوية من مثل البراجماتية، والوجودية، والرأسمالية، والمثالية، والمادية.. ولن ننسى . بطبيعة الحال . ضرورات المجابهة الإبداعية لعمليات الهدم والتشويه التي نتلمس أبعادها في العديد من معطيات الخصوم.

إنه سلّم قيميّ واسع الامتداد ما دام أن الإسلام جاء لكي يغطي تجربة الحياة البشرية بأسرها في امتداديها الأفقي والعمقي على السواء، وما دام أن الإسلام كان وسيظل بمثابة موقف متكامل ورؤية لدور الإنسان في العالم بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معنى. ومن ثم فإن لنا أن نتصور المدى الفسيح الذي يمكن أن يتحرّك فيه الأديب أو الفنان المسلم وهو يعتمد في مقابل هذا وقائع وأحداثاً وخبرات هي بمثابة عينات مكثفة لهذه التجربة البشرية أو تلك، ولهذا الموقف أو ذاك وصولاً إلى دلالاته التربوية الهادفة.

◁ شمولية الأدب الإسلامي

إن الأدب الإسلامي بمفهومه الأكثر شمولية وتغطية لمطالب الرؤية الإسلامية للكون والحياة والإنسان والوجود.. الأدب الإسلامي بطموحه للتحقّق بالتوازن المأمول بين التقنيات أو الأساليب الجمالية وبين المضامين.. هذا الأدب ليس كلاماً يقال، أو أمنية تزجى، أو حلما نرجو تحقّقه في زمن قادم.. إنه حقيقة واقعة أخذت تتأكد أكثر فأكثر منذ عقود عديدة، متجذّرة في تراث أدبي عمره أربعة عشر قرناً، ماضية صوب مستقبل يحتلّ فيه هذا الأدب مكانه المتميز على خرائط الآداب العالمية المعاصرة.

وإذا كان هذا الأدب قد أطلّ بعطائه إبداعاً ودراسة ونقداً وتنظيراً، بُعَيْد منتصف هذا القرن على استحياء، فإنه ما لبث أن تجذّر في الأرض وواصل امتداده وحضوره في الكم والنوع بمرور الوقت.. ثم ها هو ذا في العقدين الأخيرين يهدر كالشلال سخياً كثيفاً معطاءً متنوعاً واعداً بالكثير..

لقد أصبحت لهذا الأدب اليوم مكتبة غنية تنطوي رفوفها على عشرات ومئات الأعمال الإبداعية شعراً وقصة ورواية ومسرحية وترجمة وسيرة ذاتية ومقالاً.. ومئات أخرى من الأعمال الدراسية: نقداً وتاريخاً وتنظيراً.. ومضى العطاء يشقّ طريقه بصيغة متوالية هندسية تجعل من العشرين أربعين ومن هذه ثمانين.. وسيجيء اليوم الذي تكون فيه هذه المكتبة بمذهبها الخاص، ومنهجها المتميّز، ومحاولاتها النقدية، وأعمالها الإبداعية، واحدة من أكثر مكتبات الأدب العالمي خصباً وتنوعاً وعطاء..

صحيح أن هناك حلقات ضعيفة أو غائبة في نسيج المعطى الأدبي الإسلامي: كالمنهج، والنقد التطبيقي إلى حد ما.. وصحيح أيضاً أن هناك اختلالاً في التوازن بين الأعمال الإبداعية حيث نجد مثلاً طغياناً للشعر على القصة القصيرة وهذه على الرواية والمسرحية، كما نجد غياباً ملحوظاً في السيرة الذاتية.. ولكن العبرة كما يقول المثل، بالنتيجة، والنتيجة تعد بتجاوز هذه المناقص إذا مارسنا باستمرار نقد أنفسنا وحاولنا بجرأة وصراحة أن نعترف بأخطائنا من أجل عبورها صوب القدر الممكن من الاكتمال.

ليس هذا فحسب، بل إننا نلحظ كيف استطاع الأدب الإسلامي أن يشق طريقه، وبخاصة عبر العقدين الأخيرين، في قلب الأكاديمية على مستويي التدريس والدراسة، وكيف قبلت به حتى الدوائر العلمانية، فضلاً عن الإسلامية، وفتحت صدرها وعقلها لاختيار موضوعات رسائل الدراسات العليا من أطره ومفرداته.. وهذا بعون الله وفضله يمثل خطوة نوعية باتجاه تأكيد هذا الأدب المتميز في خارطة الأكاديمية وفي صراع الأفكار والثقافات، وعبر معركة تحقيق الذات قبالة محاولات التغرّب والانخلاع من الجذور على مستوى العقيدة والتاريخ ■